الفصل الرابع :

ملهمات شعره

الحب الأول..

كان الحب الأول فى حياته عام ١٩٢٧، أحب فى تلك الحقبة من حياته امرأة ناضجة الأنوثة اشتهرت بحب الشعر والانشاد والغناء.. كانت ممثلة ذائعة الصيت من أجمل من وقفن على خشبة المسارح فى مصر، وقد اشتهرت بعينيها الزرقاوين الصافيتين، وبأنها خير من مثلت دور «ليلى» فى مسرحية «مجنون ليلى» لشوقى كانت «زينب صدقى» شقراء ذهبية الشعر، أحبها أكثر من شاعر.. انها شمس الشعراء أحبها شاعر الرقة العاطفية ابراهيم ناجى، وشاعر الحب والوطنية طالح جودت كما أحبها أحمد راسم الذى نظم فيها الشعر باللغة الفرنسية وقد استوحى منها ناجى قصيدة يقول فيها:[1]

قـربـى عينك مـنـى قربى ... ظللينى واغمرينى بصفاها
وأريـنـى هـدأة البحر إذا ... انبسط البحر جلالاً وتناهى
وأريـنـى لجـة السحر التى ... ضل فى أعماقها الفكر وتاها
وأراهـا تخـبـأ الخـلـد لمن ... باع دنياه وبالروح اشتراها
نحن أرواح حيارى افترقت ... ثم عادت فتلاقت فى شجاها
سوف ينسى القلب إلا ساعة ... من رضاً فى وكرك الحانى قضاها

***

(١) ديوان وراء الغمام/ ١٩٣٤/ ص١٥٤

ومر شاعرنا مع «زينب صدقى» بتجربة عاطفية عنيفة علمته أن أعنف التجارب العاطفية هو هوى الغانيات..

وكان شاعرنا يغار عليها لأنها كانت بحكم عملها هدفاً لحب ومغازلات المعجبين والمحبين.

فاتهمت شاعرنا بالغلو فى الغيرة وطلبت منه أن يخفف من غلوائه.. وأمعنت فى الصد والهجران والدلال، لتذيق شاعرنا العاشق المفتون أهوال الهجر ومكاره الصدود!..

فكتب شاعرنا مصوراً تلك التجربة فقال:[1]

أعرضت زينب عن حبى لها ... أم أراها ساءها منه السرف

كل ذنبى أننى ساءلتها ... عن مكان القلب منها فى شغف

فهو قلبى عندها خلّفته ... كنت من خوفى عليه فى لهف

بالرضى والدمع عينى شرقت ... قدّر الصدّ شئونا ولطف

يوم قالت فى عتاب سرنّى ... ان قلبى فى نعيم وترف

ان يكن عندك ذنبى سرفا ... فاغفرى يا زينبى هذا السرف

ولقد كتب عند لقائها ورؤيته لجوانب منها شبيهه بجوانب فيه شعراً قال فيه:

ألقاك باسمة وقلبك باكى ... وأنا الذى أبكاه ما أبكاك

وأنا الذى عانى الهوى وخبرته ... وتحدثت لى بالأسى عيناك

وأساك لا يبدو لغير مكابد ... وأنا الذى كابدت ما أضناك

وغدوت أشفق من تباريح النوى ... ولكم تعجلتُ النوى لولاك

(١) همسات/ سرف الهوى/ ص٨٧

وطوّح بالشاعر عمله الدبلوماسى خارج مصر الذى أبعده عن هذا المورد العذب، وهو يحفظ له الاعزاز والاجلال فى أسمى مكان ويكنّ له من الاحترام أعزّه وأبقاه..

موصلية..

أمضى شاعرنا أحمد عبدالمجيد حوالى خمس سنوات بلبنان قنصلا عاماً من عام ١٩٤٣ حتى نهاية ١٩٤٧ كان كل ما حوله يدفع به إلى التغنى بما يراه من جمال فاتن آخاذ. وكان عمله، فى فترة كان لبنان يجاهد لنيل استقلاله، وتعمل مصر على أن تصل به إلى هذه الغاية، أقول كان عمله مع اخوانه يحول بينه وبين أن يتلّهى بغزل أو هوي، وكأنما كان يقول بينه وبين نفسه مع «محمود سامى البارودى»:

سواى بتحنان الأغاريد يطرب وغيرى باللذات يلهو ويلعب

ولكنه كان إذا خلا إلى نفسه بعد عمله وداعبه شيطان الشعر، رجع بذاكرته إلى سنوات خلت أمضاها فى لبنان مصطافاً عام ١٩٢٧. فى ذلك العام كان يطلب العلم فى كلية الحقوق بمصر. وعندما حل بلبنان التقى بموصلية كانت طالبة فى الجامعة الأمريكية ببيروت، كانت تهوى الرسم، وكان هو إلى جانب هوايته للشعر، يعشق الرسم وأهله ويتحدث عنه حديث الخبير. والتقى الشاعر بالرسّامة فى مصيف «بحمدون». لقد اتخذ منها شاعرنا موديلاً لشعره واتخذت هى من بعض أشعاره موديلاً لما ترسمه. وتبادلا فناً بفن.

أما الحب فقد مضى يرسم للعاشقين طريقاً ورديا ناضراً إذا جمع بينهما، كان الفن ثالثهما. فكانت تناقش شعره، وكان يناقش صورها. وما يزال كل من الفنانين يعتصر ما بزميله من المورد الذى يستقى منه فنه حتى كانت شفافيتهما تبدو لعينيهما واضحة جلية، تتحدث إذا سكتا، وتتحرك إذا سكتا وتغنى إذا أصغيا.. ونظم فيها شاعرنا

الكثير مما نشره فى ديوانه «همسات»، وكان مما نظمه فيها عند غيبتها عن عينيه فترة:

من موصلى للموصليّة ... فوعودها أبدا أبيّه

قلبى تعلقها وشطت ... والحياة غدت شقيّه

ناديتها فسمعت رجع الصوت عاد به إليّه ... نسيت شباب الحب يا لهفى وذكراه الندّيه

أم شابت الذكرى لديها ... وهى فى قلبى صبيّه

وقال فى تلك الغيبة القصيرة:

مضيت إلى الأمس أطوى الليالى وأرنو إلى غاليات الذكر

فطالعنى كالصباح المنور وجهك من بين شتى الصور

وفى حاضرى كلما التقى بحسن أرى لك حسنا أغر

لئن ذاب رسمك فى خاطرى تراءيت لى فى ثنايا البصر

ولقد استمر هذا الغرام العنيف صيف عام ١٩٢٧ بين جبال لبنان الخضراء ومصايفه الزاهرة وقد صور لنا شاعر الحب والجمال ليلة حالمة جميلة تناجى فيها العاشقان فى جبل لبنان ببلدة تدعى «برمانا»..

يصور لنا شاعرنا فى لوحات جميلة نابضة بالحرارة والصدق والجمال قصة هذا اللقاء الحالم وسط سكون الليل الهامس وجمال الطبيعة الساحرة فيقول:[1]

انظرى الوادى طواه الغيم طيّا ... فتعالى يا منى نفسى إليّا

ندفع الغيم بحبّينا سويا ... ونرى الكون بعينينا نديّا

فاتن الأضواء وضّاح المحيا ... ها هى الفتنة حولى تتهيّا

(١) همسات/ ص٧٣ - ٧٥

ويقول:

رقرقت عينى وأخفيت وجيبى عندقرب الشمس من أفق المغيب
واحتواها اليّم كالماضى القريب قربى قلبك من قلبى الخضيب
يا سناء لاح فى إثر الغروب أنت يا دنياى شمس لا تغيبى

ثم يصور - قرب بزوغ الفجر الذى سيشق أستار ظلام الليل الذى يضم بين أعطافه العاشقين ويجزع لهذا البزوغ:

ضّمنا ليل تهادى للزوال يا لقلبى ان مضى عنّى ويا لى
كم تهادينا أفانين الوصال وانتشت من صفونا بنت الدوالى
آه من عطفيك يا أنس الليالى يا رعاك الله من ذل السؤال

ثم يصور سعادة اللقاء ونشوة الحب وحلاوة النجوى:

اسمعى همس المنى فى خاطرينا وانظرى صدق الهوى فى ناظرينا
بارك الحب هوانا فانتشينا نستقى والوصل دان فارتوينا
هذه الليلة منه والينا رضى الحب عليها وعلينا

ثم نراه يفزع عندما يحين الفراق وما أقساه من مبدّد لهناءة العاشقين فنجده وقد تمنى لو طال اللقاء وطالت سعادة النجوى والوصال، ويتمنى لو طال هذا الليل وكأنه يهمس لنفسه «ليت هذا الليل لا يطلع فجره»..

فيصوره لحظة الفراق المضنية ومرارتها وإشفاقه من هذا النوى فيقول:

عندما حان النوى اشتد عناقى
وسرت فى الجو انفاس اشتياقى
وبدت سهمة حزن فى المآقى

أيهـــا الســـاقـــى مضى عـــهـــد الـــتـــلاقـــى
وانـــــطـــــوى لـــيـــلى وهـــذا الـــشـــوق بـــاقـــى
يـــــا لـــــروحـــــى فى غـــد ممـــــا تـــلاقـــى
أيـــــــن أنـــــت الـــيـــوم يـــا لـــيـــلاي
أيـــــن الـــعـــهـــد مـــن تـــلـــك الـــعـــشـــيـــه
آه لو عادت بنا أو عدت يا ليلاى فـــالـــذكـــرى نـــدّيـــه

***

أقول إن شاعرنا وهو فى لبنان ما بين عام ١٩٤٣، وعام ١٩٤٧ رأى أن يجمع ما كان قد نظمه فى سنواته الباكرة، وما مر على صفحة عاطفته من صور مشبوبة بالهوى، ثرية بالتجربة الوجدانية وراح يعيش فى ضبابيات تلك السنوات منذ عام ١٩٢٧ حينما التقى بموصليته حتى عام ١٩٣٤ بعد أن طاف باليونان وفرنسا وأمريكا..

وكان قد نظم فى تلك السنوات الكثير مما احتواه ديوانه واشتملت عليه أغانيه وكانت فرصة أمدته بها طبيعة لبنان وجمالها وسكونها وتنوعها ان هبطت الوادى أو ارتقيت الجبل أو سبحت فى البحر أو انزلقت على الثلوج، ورأى أن يسجل فى هذه الفترة ما نظمه فى معاناته ووجدانياته ونظراته وفلسفاته وسخرياته مما يرى:

جمع الضعف بين شيخ وطفل، وكذا الصمت بين موت ونوم، وبدا الكون فى الغروب مثيلاً لشروق شاهدته من يوم..

ويقول لى شاعرنا إن هذه الفترة كانت بالنسبة له كالواحة التى يلتقط عنها الرحل أنفاسهم استعداداً لرحيل أشق ومزارات نائية.

فتاة الجبل..

وهذه تجربة حب أخرى مر بها فى لبنان مع ملهمة أخرى استوحى من ليلة لقاء بها قصيدة عذبة يقول فيها:[1]

تسألينى كيف أصبحت ... وفى عينى الجواب؟
اقرئى فيها سطور السهد ... من ماضى العذاب
وانظرى منها إلى قلبي ... لعل القلب ذاب
واسألیه الیوم عني ... نحن فى البلوى صحاب
كلما حذّرته من يوم ... صدٍ واغتراب
قال هذا الشأن شأني ... أجره لى والعقاب
انما عشقى فنون ... ليس يحويها كتاب

ثم يقول عن محبوبته:

يا رعى الله محيا ... ضاء من بين السحاب
مالئا آفاق روحى ... بالأمانىّ العذاب
يوم أقبلتِ وفى عيني ... وعينيك الجواب
يا تُرى يا مبعث ... الوحى أمانيك كِذاب
فالمنى شيّعتها من قبل ... أن تُمسى سراب

ثم يسترسل مع أحاسيسه ليقول:

يا رعى الله ظلاما ... قد طوانا فى حجاب

(١) مجلة الأديب/ ٩ يونيه ١٩٤٦

وانتحينا وحديثى آهة الشوق المذاب
وانصرفنا عن شئونٍ تتهاداها الصحاب
نبتغى من لمس أيدينا عناقاً أو عتاب

***

من عيون النرجس النعسان نمشى باضطراب
خشية الواشين مذ كانت وشاياهم ضباب
والهوى الغالى شموع نفتديها بالرقاب
دار شمع الحب يبقى فى ضياء والتهاب

***

ما لقلبينا لفرط الحب ناءا بالرغاب
ما لعينينا لفرط الحب تهمى كالسحاب
ما لأيدينا أمانيها تناءت بارتياب
آه لو نامت عيونُ وتهادينا رغاب

***

بادلينى بالهوى من قبل أن يمضى الشباب
وصلى ما بيننا فالوصل ضمٌّ واقتراب

ومن وحى ليلة غرام هامسة مع فتاة الجبل، سجل همسات روحه وخفقات قلبه ونجوى روحيهما وهما يهيمان فى دنيا الحب والوصل والخيال:

من ليالى الخلد كانت ليلتى ودفيق الأنس كانت خمرتى

فـانـتـشـت روحـــى وطـــابـــت صـوبـتـى
يا هنائى عندما وافى الحبيب ناشراً فى الجو صفواً لا يغيب
مـــن صـبـــاه الـغـضّ فى ظـــل رطـيـب
يـــا لـــذكـــرى لـيـلـتـى تـــلـــك الـــتـــى

ثم يهمس لحبيبته لتظل بجانبه ليهيما فى بحار الحب والنجوى:

يا حبيبى ملء عينينا رضى لا نبالى مقبلا أو ما مضى
يـــا حـبـيـبـى هـكـذا شـاء الـقـضـا
فتعال اليوم فى ظلّ القمر نقطف الأزهار من كفّ القدر
مـثـلـهـا الـدهـر قـلـيـلا مـا يـذر
يـا لـذكـرى لـيـلـتـى تـلـك الـتـى

***

ويود لو ظلت الأيام ترعى حبهما الغض الحالم:

صبّ فى أذنى أحاديث الهوى ان قلبى منك صاد ما ارتوى
يـا حـبـيـبـى إنـنـى أخـشـى الـنـوى
ها هى الأيام يوماً جمعتنا ما عليها لو بتحنان رعتنا
وبـكـأس مـن أمـان اتـرعـتـنـا
يـا لـذكـرى لـيـلـتـى تـلـك الـتـى

***

ويدعوها أن تنتهب من كأس اللذات، قبل أن يحرمها الدهر الضنين منه:

هات من ثغرك شهداً لا يمل ... انما لحن الهوى رجع القبل
فتعال اليوم ... يا ملء المقل
نحتسى الاقداح من دهرضنين ... طالما ضقنا به عبر السنين
ولكم أقصى ... شراعا عن سفين
يا لذكرى ليلتى ... تلك التى

وملهمته هى أمله ومهوى قلبه وعمره كله:

يا حبيبى عشت وحدى مغرماً ... افتدى بالعمر طيفاً ملهما
وانقضى عمرى ... وما زال الظما
يا حبيب أنت فى عمرى ربيع ... أنت لى العمر الذى كاد يضيع
كن كما تهوى ... وحسبى أن أطيع
يا لذكرى ليلتى ... تلك التى

***

ويود لو شاركه الليل فرحته ونشوته مع حبيبة القلب ومهوى الفؤاد:

غنّنا يا ليل واسمع لحننا ... وارونا يا كأس واشهد أنسنا
سوف يغدو الصفو ... ذكرى بعدنا
والليالى آه من غدر الليالى ... عندما تغدو بقلب لا يبالى
وترى وجدى ... ولا ترحم حالى
يا لذكرى ليلتى ... تلك التى

***

وكل ما فى الكون حول المحبين الهائمين إلهام ونشوة وجمال:

ضمنّا ليل وفّى أم صباح ... وسقتنى الراح خمرا أم مراح
واستبانى الوجد ... أم قلبى استراح
لست أدرى غير أنى مغرم ... كل ما فى الكون حولى ملهم
وأنا عين ... وأذن وفم
يا لذكرى ليلتى ... تلك التى

***

ويهمس لمحبوبته بألا تدعه مرة أخرى للفرقة وعذاب الوجد والحنين

يا رفيق العود يا طيف الوسن ... بالذى صاغك من لحن أغن
وكسا لحظك ... سحر من فنن
لا تدعنى لتباريح الجوى ... بعد أن أحييت منى ما انطوى
يا حبيبى لا ... تبعنى للنوى
يا لذكرى ليلتى ... تلك التى

***

ويظل يهيم معها فى بحار الحب والنجوى والخيال المجنح الهامس:

ليلنا صبح وشمس وبدور ... تنتشى فيه عيون وثغور
ويغنى فيه ... قلب وشعور
المنى بين يدينا تتثنى ... والهوى غيران مما نتمنى
وغدت روحك ... من روحى أدنى

يـــا لـــذكـــرى لـيـلـتـى تـــلـــك الـــتـــى

***

وتظل تعاوده ذكرى تلك الليلة الهامسة الحالمة المفعمة بالحب والنجوى واللذاذات:

يا لذكرى ليلتى تلك التى أشعلت وجدى وأدمت مهجتى
فـــمـــتـــى تحـــظـــى بـــاخـــرى صـــبـــوتـــى
يا شـذى الأزهـــار ظلما ولما لا تدعنى فى ظنونى هائما
كـــــن رحـــيـــمـــاً وبـــقـــلـــبـــى ارحـمـــا
يـــا لـــذكـــرى لـيـلـتـى تـــلـــك الـــتـــى

مجرى العبير

التقى شاعرنا وهو على ظهر باخرة تعبر به مضيق البوسفور بتركيا بفتاة ناهدة حسناء خمرية وكان يجلس فى مواجهتها، فاسترعى نظره منظر غريب وطريف ومقابلة أعجب. كان يرى هضبتين متقابلتين على الشطين وماء البوسفور يجرى بينهما بسحره وعطره وسرعان ما ربط خياله بين هضبتى الشاطئين وبين نهدى الفتاة الناهدة التى كانت تجلس قبالته.

وصور هذا المنظر الطريف الجميل فى قصيدة «مجرى العبير» فقال:[1]

نبتا عـلى غـصـن الأراك وشـــابهـــا رمـــانـــتـــين
وتـــرجـــرجـــا فى نـشـوة مـفـتـونـة كـالـمـوجـتـين
مـــاذا عـــلى ظـمـأ المـشـوق لـو احـتـسـى مـن منبعين

(١) همسات/ ص٢٠

نهـديـن حـــار الـشـوق بينهما وحـــارت كـل عين
ألـقـى الـقـمـيـص عليهما ظـــلّا فـغـابـا بـــين بـين
حتى إذا انـفـرج القميص أطـــلّ مجـــرى الـشـاطـئين

***

وعندما أجج هذا المنظر الفاتن مشاعره وأحاسيسه وهوى قلبه العاشق هتف يقول:

مـــاذا عـــلى يـــد عـاشـق لـو أمـسـكـت بـالـتـوأمـين
وهـــوى بـشـغـر ظـامـئ فـــوق الـتـقـاء الضفتين
مجـــرى الـعـبـيـر الـعـاطـر الأنـسـام مهوى الناظرين
مـــن لى بـــه فى صـبـوة قـد خـلّـفـت لى حسرتين
نـــار تـــأجّـــج فى الحـشـا وهـــواى مـغـلـول اليدين

***

نهـــداك يـــا ســـمـــراء ما أســـماهمـــا مـــن شـامخـين
نهـــداك يـــا ســـمـــراء ما أمـضـاهمـا مـــن حـربـتـين
ان حـــركـــت يـــد راغـب حـــرق ورامـــــت لمستين
وثـبـا وردّا كـــل شرّ محـــــدق بـالـغـالـيـين
وارتـــــدت الـكـف الـتـى نـالـت جـــزاء طعنتين
وقـــضى الـــوفـــاء عليهما أن يحـرسـا مـن كـل عين

غرام على شاطئ الحب

فى مغنى من مغانى الرمل بمدينة الإسكندرية تعرف شاعر الحب والجمال عام ١٩٣٢ على حسناء مثقفة ذكية فى الإسكندرية وأعجبه منها رقتها وأنوثتها وثقافتها الواسعة، كما شده إليها جمالها الخمرى وعيونها السود وشعرها الفاحم، وصوت له جرس حبيب وكانت الملهمة أديبة تتذوق الشعر وتنقد الأدب، وكانت مثقفة أتاحت لها التوغل فى دخيلة شعره الهامس الرقيق، وكان هو فى حاجة إلى هذا الموديل الذى ألهمه أجمل قصائد الحب والغزل والحنين. وحدث ان كان على وشك السفر بحكم عمله بالخارج.. وكانت هى فى وداعه وقد أحزنها الفراق وآلمها، وقد حاولت اخفاء حزنها الممعن لفراقه، فقال:[1]

يا حلوة التوديع ... صمتك هزّنى
وأنا الذى أبكاه ... ما أبكاك
أخفيت دمعا ... مثلما أخفيته
وأنا الذى أفنى ... الدموع هواك
وطويت ما بين ... الجوانح والحشا
مثل الذي ... أخفيته وشجاك
حتى التقى دمعى ... ودمعك فى الكرى
ولثمت فى وله ... المتيم فاك
ورأيتنى فى الحلم ... بين مفاتن
من صفو ماضينا ... ومن ذكراك

(١) همسات/ ص٢٤

ورآها ذات يوم تستحم فى مياه البحر فى الإسكندرية، فأحسّ بالغيرة من البحر الذى ينعم بوصالها ويستأثر بها دونه:

يـا بـحـر انـى مـن هـواك ... غـــيران عـذبـه رضـاك
تهـواك نـاعـسـة الجـفـون ... وتـشـتـهـيـك فـيـا هـنـاك
وتمـدّ أسـبـاب الـوصـال ... لهـا ويـغـريهـا صـفـاك
حـتـى إذا نـزلـت إلـيـك ... ضـمـمـت يـا لهـفـى مـلاك
ومـضـيـت تـلـثـم ثغرها ... حـيـنـا وتجـذبهـا يـداك
وتـضـم خـصـرا لـيـنّـا ... لا تـسـتـنـيـم لمـن نهـاك
يـا طـيـب ثـغـر حسنه ... يـا بـحـر أوردنـى الهـلاك
يـا طـيـب خـصـر لينه ... يـا بـحـر أفـقـدنـى هـواك
وتـعـود تـعـبـث بـالخـدود ... فليتنى بـعـض الـشـبـاك
ألـقـى بهـا فـأصـيـدهـا ... وأحـوز مـن سلبت نهاك

ومن الطريف أن هذه الملهمة كانت تستثير شاعرنا أحياناً بالصدود والهجران لتثير فى صدره الالهام وشياطين الشعر، ومعانى الحنين والشوق:[1]

يـا لاهـيـا أيـقـظـت ظنّى ... ومـلأت أكـوابـى ودنّـى
وسقيتنى كـأس الظنون ... وخمـرهـا عـبـثـت بأمنى
انـى أعـيـذك أن تظن ... الحـب غـايـتـه التجنى
ان كـان ذاك هـواك ... فاستمرئ هواك ولا تدعنى
وكـمـا أردت وشـئـت كن ... فـهـواى مـوصـول التمنى

(١) همسات/ ص١٨

ويقول لها معاتباً:

وأنـا الـذى أنـشـدت فيك ... قـصـائـدى وأنـا المغنى
وأنـا الـذى مـلأ الفضاء ... أغـانـيـا ومـلأت عينى
يـا ليتنى مـن بعض شأنك ... مـثـلـما أصـبـحـت شـأنـى

وكان شاعرنا إذا رحل عنها راح ينكر الأيام التى يقضيها وهو عنها بعيد يسترجع ذكريات حبها الهنيئة وليالى تلاقيهما، وكان آنذاك فى اليونان، وأخذ يتساءل «أين أنا»:[1]

أيـن أنـت الآن أو أيـن أنا ... يا هناء العين يا وحى المنى
انـنـى يـا أنـس أيـامـى هنا ... أحسب الأيـام قد عادت بنا
حيث كنا ان عدمنا الأمن ... والأمـن عـزيـز فى الهـوى
نـتـمـنّـى مـزج روحـيـنـا ... كراحينا فلا نخشى النوى

***

حيث نلقى الليل فى الأفق حبا ... نسبق الليل إلى تلك الربى
بـين أفـراح تناهت طربا ... تبعث النشوة فى النهر النمير

***

كـم تـسـاجـلـنـا الحـنـان ... وتـنـاسـيـنـا الـزمـان
وتـغـنـيّـنـا أمـانـيـنـا ... إذا مـا الـبـعـد حـان
يا هناء العين يا وحى المنى ... انـنـى أنـكـرت أيـامـى هنا
أيـن أيامى ومـا أوحـت لنا ... أيـن أنـت الآن أو أيـن أنا؟

(١) همسات/ ص٢٦

على أن هذا الغرام انتهى نهاية محزنة دامية.. فقد اختطفها الموت وهى فى مقتبل العمر إثر نزيف حاد، وكانت صدمة العمر لشاعرنا وهكذا أُسدل الستار على تلك القصة العاطفية المحزنة!.

اليونانية الحسناء.. ولغة العيون!

فى عام ١٩٤٠ وأثناء اشتعال نار الحرب العالمية الثانية كان الظلام يلف القاهرة ويطبق عليها.

وكان شاعرنا يسهر كل ليلة مع صحبة فى حانة هادئة ساكنة بشارع ٢٦ يوليو «فؤاد سابقاً» لا يرتادها إلا زبائنها. واستلفتت نظره فتاة حسناء هيفاء بارعة الجمال قيل له إنها يونانية كانت تحضر لتسمر مع عائلتها كل مساء. ورأى فى عينيها كنزاً شعرياً موحيًا بالسحر والخيال.

وكان شاعرنا يجلس مع أصدقائه فى ركن بالقرب منها. وشدته إليها جاذبيتها ورقتها وعيون ذكية محدثة. والتقت عيونهما طويلاً واستمرت مناجاة العيون لأيام متتالية سعيدة دون إشارة أو حديث وسعد شاعرنا بلغة العيون بينه وبين الحسناء اليونانية دون أن يجرؤ على محادثتها مكتفياً بملمس الكأس دون شربها منها واستوحى قصيدة أذاب فيها قلبه وروحه ووجدانه. انه يطلب من ساقى الحانة أن يسقيه حتى يثمل فلا يرى أمامه سواها.. يقول فى قصيدة «ليتنى وعساها»[1]

اسقنى حتى ترانى ... لا أرى شيئاً سواها
أو إذا ما شئت دعنى ... لا أرى خمراً عداها
أين من راحى رضاب ... بات للنفس مناها

(١) همسات/ ص٤٨ - ٤٩

إنهـــا خمـــرى وراحـــى وهـــى لـلـعـين ضيـاهـا
نـشـوة تـسرى بقلبى كـلـمـا لاح سـنـاهـا
آه يـا قـلـبـى حـنـانـيـك فـمـا سـهـل ربـاهـا
آه لـو فى الحـب تلقى مـا عـرانـى قـد عـراهـا
روضـة بـالحـب تـزهـو يـا رعـى الله جـنـاهـا
هـل أبيت العمر يـا قلبى تـرانـى وأراهـا
وتـرى فـرط شجـونـى مـن ولـوعـى فى هـواهـا
وأرى الحـسـن ينادينى ويـقـصـيـنـى جـفـاهـا
فـتـنـة لـلـنـاس ربّـى قـد كـسـاهـا مـا كساها
آه لـو بـالـنـفـس أقـضى سـاعـة أشـكـو جـواهـا
امـلأ الأقـداح يـا ساقى ودع عـيـنـى تـراهـا
وهـى مـلء الـعين نشوى وأنـا أحـسـو بهـاهـا
ليـتـنـى خمـر أذابـت فيه مـن فـيـهـا شـذاهـا
ليتنى كـأس تـقـبّـل كلّما أدنـتـه فـاهـا
ليـتـنـى فى الـلـيـل طيف ان سـجـا الـلـيـل رعـاهـا
قـد غـدا مـنـهـا نصيبى لـيـتـنـى أوقـد عـسـاهـا

واستمر الحال على هذا المنوال وشاعرنا راض بهذا الحب اليائس وقانع بلغة العيون ومناجاتها، ولكن الأيام أذاقته من ويلات النوى ما أذاقته. فقد احتجبت عن الحضور فجأة وافتقدها شاعرنا العاشق وظل يسأل عنها بلا جدوى وشعر بفراغ موحش وحزن عميق واشتاق لمناجاة العيون ولوجهها الصبوح الجميل الذى اعتاد

على اجتلاء محاسنه ومفاتنه كل ليلة. وناجاها بقصيدة يبثها فيها لوعته وأساه من غيابها عنه ويشرح هواجسه وكأنها أمامه أو من وراء ستار. وتمنى لو عادت ليالى المناجاة بالعيون فى تلك الأيام العصيبة الموحشة والحرب تلقى بظلها القاتم على مصر وعلى النفوس وتستل الأمن والطمأنينة.

قال شاعرنا فى قصيدة «دنيا» يناجى الحسناء المحتجبة:[1]

يـا هـاجـرى دعـنـى أراك ... فـالـكـون لم يشمل سـواك
فـلأنـت دنـيـا يحتسى ... منـهـا المـفـاتـن مـن يـراك
ولأنـت كـون قـائـم ... فـيـه الـسـلامـة والهـلاك
فـيـه الـصـبـا والحـسـن ... والـوصـل المعلق بالشراك
فيه الـرضى والصفو والخير ... المـؤمـل فى صـفـاك
فلئن أبيت عـلّى أن ألقاك ... لم أعـدم رؤاك
والـعـين ان جـاوزتهـا ... فالحلم يـعـرض لى جفاك
والـروض يـلـقـانـى ... فـألـقـى فى أزاهـره لماك
والـنـجـم فى لألائـه وسناه ... لا يـعـدو سـنـاك
أو أن تجـهّـم لى الـزمـان ... وضـنَّ ذكـرنـى جـفـاك
والخـير فى دنـيـاى يـا دنياى ... مـن غـالى رضـاك

ثم يدعوها لأن تعود ليراها فيرى جمال الحسن وسطوة الجمال ممثلة فيها:

أنـا يـا حـبـيـبـى عـاشـق ... أسـتـاف فى الـدنـيـا شـذاك
فلئن صـبـوت إلى الجـمال ... فـفـى الجـمـال أرى أخـاك

(١) همسات/ ص٥٢ - ٥٣

ولئن نهلت الحسن من دنياى لا يغنى غناك
انى سألتك بالعيون السود مذ كنّ الشّباك
أن ترحم الخفّاق فى صدرى ودع عينى تراك

ثم يتساءل عن السر فى احتجابها فيقول:

حجبوك عنى يا حبيبى أم هوى غيرى دعاك
حجبوك لما أيقنوا من صبوة ملكت نهاك
لهفى عليك وقد تكون على فراش من ضناك
يا ليت بى فوق الهوى هذا الضنى مما عراك

نجوى.. الحب الكبير

فى خريف العمر أحب شاعرنا فتاة فاتنة الشخصية رائعة الروح حباً عنيفاً مبرحاً.. كان ذلك فى سنواته الخمس الأخيرة.

وقد ألهمه هذا الحب عشرات من قصائد الحب والغزل والوصال والحنين والهجر والدلال والسأم والملال..

استلهم منها قصيدة بعنوان «نجوى» يقول فيها:

هل يرى من أحبه أنه كل ما أرى
هل درى من أحبه أنه الكون والورى
فهو للعين مائل وحيه فى الثريا وفى الثرى

وقصيدة سر المنديل استوحاها من موقف ظريف:

أسر لى منديلها قصتها فى أذنى

وقـــــال لى أنـــــى أنـــا وحـــدى الـــذى تسمعنى

كانت هذه الفتاة تمتاز بالذكاء واللباقة واللماحية والكبرياء - كانت ترى الكون حولها قد خلق لتعبث به وتلهو بما فيه من بشر وصور وتشتط فى هذا حتى لتظن أنها قد سدرت فى غيّها، ولن تعود إلى سابق عهدها بالمقاييس والحدود والقيود.

أحب شاعرنا فيها ترفعها فى الدنايا وعنادها الذى ينطق باستقلال شخصيتها. كما راعه منها تلك القدرة التى لا تجدها إلا فى نفر قليل من بنات حواء على التشكل والتنوّع بين ساعة وساعة أو بين طرفة عين وانتباهتها، كأنما قد صيغت من شخصيات عدة وملامح متباينة ومفاتن لا تحصى..

وكان من بين ما قاله فيها فى هذا الشأن:

إذا غضبت لم يبق فى قلبها رضى فإن رضيت لم يبق فى قلبها حقد

****

كان حبه لها كما أخبرنى، ضرباً من رياضة الروح على تحمل ما لا قبل لها على تحمله أو طاقة بها على فقده. وكان يرجوها كأنها الجنة والنار - خاطبها يوماً بقوله:

كم أضل الغرام خطوى فما أعرف يوماً إلى السواء سبيلا
نصب التيّه من حواليك سدّا لا شبيها لليله أو مثيلا
انـت عرّفته الطريق لسدّ الطريق القويم ميلا فميلا
وأنـا منك تائه فى البوادى سال وعيى على الطريق مسيلا

***

وفى قصيدة بعنوان: همّ وهمّ.. يقول وهو يصور حال أساه فى اللقاء الذى يشتهيه المحبون:

كلما عزّ لقائى بالتى ... عزت الدنيا بها عند اللقاء
لفنّى همّ محيط قاتم ... وذوى ما كان من نامى الرجاء
فإذا الدنيا شجون كلها ... وإذا قلبى وحيد فى فضاء
وإذا بالعين يخبو ضوؤها ... وإذا بالفكر يعروه التواء
آه لو درى الذى يسعدنى ... لأتانى بفيض من وفاء
وأعاننى على دفع الأسى ... كلما ران على نفسى عناء
غير أنى إن دنا موعدها ... يستبينى الظن من فرط الشقاء
فلقد تأتى بهم قائم ... تشتكى منه فيا طول البلاء
ولقد تنسى الذى يذكرها ... بعد ذكر الله صبحا ومساء
فإذا أوفت بوعدى، ربما ... لا يشاء الحظ لى طول البقاء
هكذا أحيا بهمّ فى النوى ... وبهمّين إذا حان اللقاء

***

وفى يوم، كان يشكو ضعفا وألما يعاوده فى الحين بعد الحين فراحت تتودد إليه حانية، وتسأله عن مصابه فاستلهم من ذلك قوله:

تسألينى ما مصابى! ... ليس غير الحب ما بى
انه فى الليل همّ ... وهو فى صبحى عذابى
غير انى فى نعيم ... من سؤال عن مصابى
قد وشى بالحب عطف ... جاءنى يطرق بابى
لهفة طلّت من العينين ... كالسحر المذاب

وســـــؤال فى حـواشـيـه حـــنـــان لا يحـابـى
انـــه الـــصـــدق الـــذى يـضـوى كـبرق أو شهاب
نـــاشرا كالفجر أضـــواءً نـفـت كـــل ارتـيـابـى
انـنـى أصـبـحـت أهـوى مـن مـنـى الـدنـيـا عـذابى
فـهـو بـــاب لـسـؤال مـنـك يـصـغـى لجـوابـى
تسألينى عـن مـصـابـى! لـيـس غـيـر الحـب مـا بى

وفى قصيدة بعنوان «هواجس» يقول لها فيها:

تغنّى بما أنشدت فيك فانه لخير أنيس فى ابتعاد وفى قرب
تغنّى به تلقين نبضى مرددا لترديدك المرنان للشاعر الصبّ
وما كان هذا الشعر إلا خميلة بروضك يسقيها يسير من الحب
وان كان ما أجنيه قد قلّ قدره فذاك نصيبى من ربيعك بل حسبى

ويقول لها مناجيا فى قصيدة بعنوان «خلق أفكارى»:

روحى ترفّ على عينيك زائدة عنها العيون التى من خلق أفكارى
تذودها عنك حتى لا أرى أحدا غيرى يصون صباباتى وأثمارى
يابنت شعرى وأحلامى وماصنعت عرائس الفن منها خير أشعارى

كما استوحى منها قصيدة غزلية رقيقة بعنوان «رغائب» يقول فيها:[1]

شتى الرغائب فى هواك تحدق وتمد أسباب الـوداد وتسبق
ومن العجائب وهى فى صبواتها تقسو عليك يدى وقلبى يشفق

(١) همسات/ ص٤٧

وهوى عيونى وهى فى تسبيحها ترجونوالك وهى باسمك تنطق
سكرت شفاهى فوق ثغر عاطر فأظلها ظلم يضوع ويعبق
وصبت إلى أرج النهود رغائب يغرى بها مجرى العبير ويغدق
وهفت إلى الصوت الحبيب مسامع نشوى يدغدغها هوى وتشوّق
يا من لها الشوق المقيم بناظرى وبخاطرى انى بعهدك موثق
وإذا تناهى الحب وامتلك النهى سيّان أسبح فى الهوى وأغرق

***

وقد ضرب لنا شاعرنا العاشق أروع أمثلة للتضحية وأسمى معانى البذل حين افترق عنها وهو يكتم وجده بين جوانحه فى سبيل سعادتها وهنائها بعد حب عنيف طاهر سام استمر عشر سنوات كاملة، فى سنواته الأخيرة «١٩٧٠ - ١٩٨٠».

وقد استوحى شاعرنا من قصة هذا الحب الكبير فى حياته عشرات القصائد ضمنها ديوان بعنوان «نجوى» مازال مخطوطاً للآن ولدى بعض قصائده.

ومن أرق شعره من نتاج تلك التجربة العاطفية الخصبة قصيدة «سماح»:[1]

ارفعى الظن عن الخل الأمين واسعفينى من تباريح الحنين
لم أزل كالعهد فى دنيا الهوى غير أن الشك يودى باليقين
ارفعى ما بيننا من حجب وانثرى البسمات كالدر الثمين
واقبلى كالشمس فى رأد الضحى وهى تسبى فى الأصيل الناظرين
ليس لى من مطمع فيك سوى صفحك الغالى عن القلب الأمين
وسماح النفس فى عيد الندى كضياء البدر يهدى التائهين

(١) أحمد عبدالمجيد/ ديوان نجوى/ مخطوط

فـإذا الدنيا سنا فى ناظرى وإذا أنـعـمـهـا عـز مبين

***

ومن أطرف الصور الشعرية عند شاعرنا قوله انه «إمام العاشقين»:

قسما، ما الحب إلا ما أرى من خدين يتفانى فى خدين
لو بنى أهل الهوى جامعهم فأنا وحدى إمام العاشقين

وقصيدة «تترددين»[1]:

تـتـرددين! وفى الـعـيـون ضراعـتـى وصـدى رجائى
تـتـرددين! وفى الأضـالـع خـافـق بـادى الـوفـاء
لا تـنـكـرى ألم الـذبـيـح وظـامـئـا يـسـعـى لمـاء
فـإذا عييت عـن اكتشاف مـواجـعـى وأسـى عنائى
فسلى صباحك عـن هـواى يجـبـك فى وهـج الـضـياء
وسـلى مسائك عـن هـواى تجـبـك أنـداء المـسـاء

***

وقصيدة «استبدى» يعلن زهده فيها بعد أن أذاقته صنوف الدلال:

لم يـعـد ثـغـرك شـهـدى لا ولـن يـبـعـث وجـدى
لم يـعـد طيفك يـزرى بى ويـسـتـعـذب سـهـدى
لم يـعـد صـوتـك يـسرى فى دمـى يجـذب ردّى
لم يـعـد قـدّك يـغـرى أو يـعـد قـدّك قـيـدى

(١) ديوان نجوى/ مخطوط

لم يعد لحظك يوحى ... لى على قرب وبعد
لم تعودى غير ذكرى ... هى فى جزر ومد
لن يبالى اليوم قلبى ... فاعتدى أو فاستبدى
غير أنّى رغم أنّى ... قلت ما قد قلت، أبدى
أننى مازلت أهدى ... لهواك المر شهدى

***

وقد ظل أحمد عبدالمجيد يحمل لهذه المرأة أجمل مشاعر الحب والوفاء وأنبلها، وكان يشكو لى فى أحاديثه ورسائله ضنها عليه برسائلها وهى فى ديار الغربة بعيداً عن مصر..

وأستطيع أن أقول إنه رحل عن هذه الدنيا وهو حزين يحمل لها فى قلبه أسمى مشاعر الحب والوفاء. ولكنه لم يجن منها سوى اللوعة والشجن وعذاب الحرمان!.